الباب الثامن والخمسون: في ذكر العبيد والإماء والخدم

الفصل الأول: في مدح العبيد والإماء والاستيصاء بهم خيراً

عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة شهيد، وعبد أحسن عبادة ربه، ونصح لسيده». وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما رفعه: «إن العبد إذا نصح لسيده، وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين». وكان زيد بن حارثة خادماً لخديجة رضي الله تعالى عنها اشتُريَ لها بسوق عكاظ فوهبته لرسول الله ﷺ، فجاءه أبوه يريد شراءه منه، فقال رسول الله ﷺ: إن رضي بذلك فعلت. فسئل زيد فقال: ذل الرق مع صحابة رسول الله ﷺ، أحب إليّ من عز الحرية مع مفارقته. فقال رسول الله ﷺ: إذا اختارنا اخترناه، فأعتقه وزوّجه أم أيمن وبعدها زينب بنت جحش. وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «أوصيكم بالصلاة، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: لا يقولنّ أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي. وعن ابن مسعود الأنصاريّ قال: ضربت غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتاً: اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك عليه. فالتفت فإذا هو النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله هو حرّ لوجه الله تعالى. فقال: أما إنك لو لم تفعل لَلَفَحَتْكَ النار. وروي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم تعفو عن الخادم؟ ثم أعاد عليه فصمت. فلما كانت الثالثة قال له: أعفو عنه كل يوم سبعين مرة. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: حدثني أبو القاسم نبيّ التوبة ﷺ: «مَنْ قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد له يوم القيامة حدّاً». وقيل: أراد رجل بَيْعَ جاريته فبكت. فقال لها: ما لك؟ فقالت: لو ملكت منك ما ملكت مني، ما أخرجتك من يدي، فأعتقها وتزوّجها. وقال أبو اليقظان: إن قريشاً لم تكن ترغب في أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم: علي بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد اللّه. وذلك أن عمر رضي الله تعالى عنه أُتي ببنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسبيَّات، فأراد بيعهن فأعطاهن للدلال ينادي عليهن بالسوق فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه فصاح: واعمراه، وشكا إليه، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرة. فقال علي رضي الله تعالى عنه: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: أكرموا عزيز قوم ذلّ، وغني قوم افتقر، إن بنات الملوك لا يُبَعْنَ، ولكن قوّموهن. فقوّمهم وأعطاه أثمانهن، وقسمهن بين الحسين بن علي، ومحمد بن أبي بكر، وعبد اللّه بن عمر، فولدن هؤلاء الثلاثة، وقيل استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة، وكن ابن أمة، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدي:

نَهَيْتُكُمُ أَنْ تحملوا فوقَ خيلِكُم ... هجيناً لكُم يومَ الرهانِ فيدركُ

فتعثرُ كفَّاه ويسقطُ سوطُه ... ويخدُرُ ساقاهُ فما يتحرَّكُ

وهل يستوي المرآنِ هذا ابنُ حُرَّةٍ ... وهذا ابنُ أخرى ظهرها متشرِّكُ

فقال له مسلمة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلي، ولكن كما قال ابن معمر هذه الأبيات:

فما أنكحونا طائعين بناتِهم ولكِنْ خَطَبْنَاهُمْ بأرماحِنَا قسْرا
فما زادَنا فيها السباءُ مذلَّةً ولا كلفَتْ خبزاً ولا طبخَتْ قدرا
وكم قد ترى فينا منِ ابنِ سبيَّةٍ إذا لقي الأبطالَ يطعنُهُمْ شزرا
ويأخذُ ريان الطعان بكفِّهِ فيوردها بِيضاً ويُصْدِرُها حمرا

فقبل رأسه وعينيه وقال: أحسنت يا بنيّ ذاك والله أنت، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم.

الفصل الثاني: في ذم العبيد والخدم

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بئس المال في آخر الزمان المماليك» وقال مجاهد: إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين. وقال لقمان لابنه: لا تأمنّ امرأة على سر، ولا تطأ خادماً تريدها للخدمة. ووصف بعضهم عبداً فقال: يأكل فارهاً، ويعمل كارهاً، ويبغض قوماً، ويحب نوماً! وقيل لبعضهم: ألك غلام، فقال:

وما لي غلامٌ فأدعو به سوى مَنْ أبوه أخو عمَّتي

وقال أكثم: الحر حر وإن مسه الضر، والعبد عبد وإن ألبسته الدر. ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه، وله جارية فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة فقال:

إذا لم يكن في منزلِ المرء حرّةٌ رأى خللاً فيما تولَّى الولائدُ
فلا يَتَّخِذْ منهنَّ حُرٌّ قعيدةً فهنَّ لَعَمْرُ الله بئسُ القعائدِ

وكان لرجل غلام من أكسل الناس، فأرسله يوماً يشتري له عنباً وتيناً، فأبطأ عليه حتى عيل صبره، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال: ينبغي لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضي حاجتين، فمرض الرجل فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر فسأله عنه. فقال: أما ضربتني وأمرتني أن أقضي حاجتين في حاجة فجئتك بالطبيب؛ فإن شفاك الله تعالى وإلا حفر لك هذا قبرك، فهذا طبيب، وهذا حفّار.

وقيل: كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند فكتب إلى موسى الهادي أن رجلاً من أشراف الهند من آل المهلب بن أبي صفرة اشترى غلاماً أسود فرباه وتبناه. فلما كبر وشبَّ اشتدَّ به هوى مولاته فراودها عن نفسها فأجابته، فدخل مولاه يوماً على غفلة منه من حيث لا يعلم فإذا هو على صدر مولاته فعمد إليه، فجبّ ذكره، وتركه يتشحَّطُ في دمه. ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك فعالجه إلى أن برىء من علته، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثأره من مولاه، ويدبر عليه أمراً يكون فيه شفاء غليله، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل، والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر، فغاب الرجل يوماً عن منزله لبعض الأمور، فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عالٍ فنصبهما هناك، وجعل يعللهما بالمطعم مرة، وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه فرفع رأسه فرأى ابنيه في شاهق مع الغلام فقال: ويلك عرضت ابنَيَّ للموت. قال: أجل، والله الذي لا يحلف العبد بأعظم منه، لئن لم تجب ذكرك مثل ذكرك مثل ما جببتني لارمينَّ بهما. فقال: الله الله يا ولدي في تربيتي لك، قال: دع هذا عنك، فوالله ما هي إلا نفسي وإني لأسمح

ها في شربة ماء، فجعل يكرر عليه، ويتضرع له، وهو لا يقبل ذلك. ويذهب الوالد يريد الصعود إليه فيدليهما من لك الشاهق. فقال أبوهما: ويلك فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أردت، ثم أسرع وأخذ مدية فجب نفسه وهو راه، فلما رأى الأسود ذلك رمي الصبيين من الشاهق فتقطعا وقال: إن جبك لنفسك ثأري، وقتل أولادك زيادة فيه. أخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام. وقال: ما سمعت بمثل هذا قط وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود فما ترى أرداً من العبيد، ولا أقل خيراً منهم. وأكثرهم رداءة لمولدون، لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكره، كأن لم ير منك شيئاً، وكلما أحسنت إليه مرد، وإن أسأت إليه خضع وذلَّ، وقد جربت أنا ذلك كثيراً، وما أحسن ما قيل:

إذا أنــتَ أكــرمــتَ الكــريــمَ مَلَكْتَــهُ وإنْ أنــتَ أكــرمــتَ اللئيــمَ تمــرَّدَا

وقيل: إن العبد إذا شبع فسق، وإن جاع سرق. وكان جدي لأمي يقول: شر المال تربية العبيد، والمولدون نهم ألأَمُ من الزنوج وأردأ، لأن المولد لا يعرف له أباً، وربما يعرف الزنجي أبويه. ويقال في المولد بغل لأنه جنس، والبغل تكون أمه فرساً، وأبوه حماراً، وبالعكس فلا تثق بمولد لأنه قل أن يكون فيه خير، وإن كان فذاك ادر لا حكم له.

وأنا أستغفر الله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلم.